علامات مولد

عالم:

كان عالما متداعيا قد شارف النهايـة . . خلاصة ما يقال فيه إنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام.

أى أنه فقد أسباب الطمـأنينة فى الباطن والظاهر . . طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون إلى قوة فى الغيب، تبـسط العدل، وتحمى الضعف، وتجزى الظلم، وتختار لأصلح الأكمل من جميع الأمور . .

وطمـأنينة الظاهر التى تنشـأ من الركـون إلى دولة تقضـى بالشريعـة، وتفصل بين البغاة والأبرياء، وتحرس الطريق، وتخيف العائثين بالفساد.

بيزنطة قد خـرجت من الدين إلى الجدل العقيم الـذى أصبح بعد ذلك علما عليها، وتضاءت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمى بجوارها . .

وفارس قـد سخـر فيهـا المجوس . . وكـمنت عرشـها كوامن الـغيلة، وبواعث الفتن، ونوازع الشهوات.

والحبشـة ضائعة بين الأوثان المستـعارة من الحضارة تارة ومن الـهمجى تارة، وبين التـوحيـد الذى هو ضرب من عـباده الأوثان . . ثم هى بعـد هذا التشـويه فى الدين، ليـست بذات رسالة فى الدنيـا ولا بذات طور من أطوار التاريخ . . فليس لها عمل باق فى سجل الأعمال الباقيات.

عالم يتطـلع إلى حال غيـر حاله . . عالـم يتهيـأ للتبديـل أو للهدم ثم للبناء.

أمة:

وبين هذه الدول المتـداعيات، أمـة ليست بذات ولكنهـا تتأهب لإقـامة

دولة.. هى أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها.

فى أيديها تجارة العالمين كلها.

فإذا سارت القوافل من خليج فارس إلى بحر الروم، فهى تسير فى البادية بين حراس من العرب ولا سلطان عليهم للدول المتداعية.. أو هم قد شعروا بذلك السلطان ينا فى إبان الصولة الرومانية والصولة الفارسية، ثم علموا أنهم مالكون لزمامهم يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق.

وإذا سارت القوافل من اليمن إلى الشام أو من بحر القلزم إلى بحر الروم، فهى فى حيرة الأعراب ومن كلتا الطريقين.

أمة تيقظت لوجودها، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها.. ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليها، ويريدون إخضاعها وابتلاعها..

فهرقل الرومى يرسل إلى مكة من يحكمها، وأبرهة الحبشى يزحف إلى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها..

خطر من خارجها، يزيد الأمة يقظة وانتباها لوجودها.

وخطر من داخلها، يدفع بها إلى الزوال أو إلى استكمال النقص المستشرى فى حياتها..

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع فى أيديها ثروة المدينة.

حالة لا استقرار فيها..

فمن هنا الترف، والطمع، والخمر، والقمار، والمتعة، وتسخير الأقوياء للضعفاء..

ومن هنا الفاقة، والحسرة، والشك فى صلاح الأمور..

ولكنه شك يبحث ويضطرب، وليس بالشك الذى يستجم ويستكين فحيثما اجتمع أناس من أولى الرأى يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه. اجتمع أناس بنخلة لإحياء عيد العزى فقال رجل منهم لأخوانه: "والله ما قومكم على شيء وإنهم لفى ضلال.. فما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجرى دم النحور. يا قوم التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه".. ثم تفرقوا، فمنهم من تنصر، ومنهم من اعتزل الأوثان، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام فلباها.. وكان الذى تنصر وسمع دعوة الإسلام ورقة بن نوفل الذى كتب له أن يتلقى بشارة النبى العربى عند زهوره ويلقى إليه بالبشارة.

هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير..

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع من الضمير، ووازع من السلطان فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلون حتى يؤدى إليه حقه.. وذلك حلف الفضول الذى شهده النبى العربى فى شبابه وقال فيه. "ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر لنعم".

حالة لا تستقر، ولا تزال فى طلب الاستقرار.

وأمة يقظى!..

وخطر محدق بها مما حولها، ومما هو فى دخائلها وأحشائها.. حالة تنذر بالزوال، وقلما تزول أمة يقظى فى أوان انتباهها. فتلك إذن حالة للتبديل والتجديد.

***

قبيلة:

وقبيلة فى تلك الأمة، فى تلك المدينة.. لها شعبتان:

إحداهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائما على هواها..

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوى الذى يجور ويطغى ويستبقى أداة الجور والطغيان، ومقام الضعيف الذى يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة ولا يملك مع السيد الآمر إلا أن يذعن له ويأكل من فضلات يديه.

***

بيت:

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة والكبرياء الجائحة، والقسوة على من دونه من المحرومين.

ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا، وإن لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية فى ذلك الأوان..

ورأس هذا البيت - عبد المطلب - رجل قوى الخلق قوى الإيمان فيما أمن به، حكيم مع قوة طبعه وشدة إيمانه، خليق أن ينجب العقب الذى يبشر بدعوة وينضح عن دين.

ندر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة.. ثم أحله قومه وأحلته العرافة من نذره، فأبى أن يتحلل حتى يستوثق من رضا الرب ورضا ضميره

سألتهم العرافة: "كم الدية فيكم؟".

قالوا: "عشر من الإبل".

قالت: "فتقربوا إذا بعشر من الإبل واضربوا على الفتى وعليها بالقداح.. فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم" فما زالوا يزيدون حتى بلغت الإبل مائة وخرجت القداح عليها فهتفت قريش بعبد المطلب: "لقد رضى ربك.. فأطلق فتاك". وكان خليقا بمن يريد أن يتحلل ويتعلل أن يقبل ولا حرج عليه، ولكن عبد المطلب لم يكن من المتحللين المتعللين، فأبى إلا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات، ثم نحرت الإبل للجياع من الأناسى والسباع.

وجاء القائد الحبشى يهدم الكعبة ويسطو على الإبل والشاء. فلما سأله عبد المطلب أ، يرد إليه إبله، قال له مقال السياسى المحرج المداور بالكلام "أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة".

فأجابه عبد المطلب جواب حكيم المؤمن: "أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت فله رب يحميه!".

فكان إيمانه كفئًا لدهاء السياسة، ولم يكن إيمان الجز والتواكل والاستسلام..

ومن كان له هذا الخلق، وهذا الضمير، وهذا الإيمان، وهذه الرئاسة، فليس من عجب أن ينجب نبيا فى زمان يستدعى الأنبياء، ومكان مهيئ لهم دون كل مكان.. بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان.

***

أب:

وإذا كان عبد المطلب جدا صالحا لنبى كريم، فابنه عبد الله نعم الأب لذلك النبى الكريم.

لكأنما كان بضعة من عالم الغيب، أرسلت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيا وهى لا تراه.، ثم تعود.

كان إنسان من طينة الشهداء، يتجه إلى القلب الإنسانى بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة. فهو الفتى الذى اسمه عبد الله والذى اختير للفداء، فجاشت له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر إلى حين. وهو الفتى الذى تحدثت الفتيات فى الخدور بوسامته وحيائه، وودت مئات منهن لو نعمن منه بنعمة الزواج وهو الفتى الذى أقام مع عروسه ثلاثة أيام، ثم سافر ليتجر فإذا هى السفرة التى لا يؤوب منها الذاهبون وهو الفتى الذى مات هو غريب، ولد له نسله الكريم وهو دفين.

وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة أباء الأنبياء والسلالة التى تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء..

***

رجل:

عالم يتطلع إلى نبى.. وأمة تتطلع إلى نبى، ومدينة تتطلع إلى نبى، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبى.

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه آخر فى صفاته ومقدماته، ولا يدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة.. وفى الجزيرة، وفى العالم بأسره.

نبيل عريق النسب وليس بالوضيع الخامل، فيصغر قدره فى أمة الأنساب والأحساب..

فقير.. وليس بالغنى المترف فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار.

يتيم بين رحماء.. فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح، وفضيلة العطف على الآخرين.

خبيـر بكل ما يختبـره العرب من ضروب العيش فى البـادية والحاضرة تربى فى الصـحراء وألف المدينة، ورعى القطـعان واشتـغل بالتـجارة وشـهد الحروب والأحلاف واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء.

فهو خلاصة الكفاية العربية فى خير ما تكون عليه الكفاية العربية.

وهو على صلة بالدنيـا التى أحاطت بقومـه.. فلا هو يجـهلها فيـغفل عنها، ولا يغامسها كل المغامسة فيغرق فى لجتها.

أصلح رجل من أصلح بيت فى أصـلح زمان لرسـالة النجاة المرقـوبة، على غير علم من الدنيا التى ترقبها..

ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام..

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه، والجزيرة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه، والدنيا مهيأة لأنه محتاجة إليه، وماذا عن علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة؟.. وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير؟.. ومـاذا من أساطيـر المختـرعـين للأساطيـر أعـجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق؟.. وعـلامات الرسالة الصادقة هى عـقيدة تحتاج إليـها الأمة، وهى أسباب تمهد لظهورها، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها.

فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟.. وإذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟..

خلق محمـد بن عبد الله ليكون رسولا مبـشراً بدين، وإلا فلأى شىء خلق.. ولأى عـمل من أعمـال هذه الحـياة ترشـحـه كل هاتيك المقدمـات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات؟

لو اشتغل بالتجـارة طوال حياته كما اشتغل بـها فترة من الزمن، لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به فى سـوق التجار والشراة.. ولكن التجارة كانت

تشغل بعض صفاته. قم تظل صفته العليا معطلة لا حاجة إليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال.

ولو اشتغل زعيمًا بين قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد.

فالذى أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها، وما من أحد قد أعد فى هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد..

***

بشائر الرسالة:

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية.. يسردون ما أكده الرواة منها ولم يؤكده، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث أو ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته، ويتفقون فى الرأى والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام.

لا موضع هنا لاختلاف..

فما من بشارة من تلك البشائر كان لها أثر فى إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة، أو كان ثبوت الإسلام توفقا عليها.

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤادها، ولا عرفوا أنها علامة على شىء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة..

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه.

وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره. ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين.. يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين.

أما العلاقة التى لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها، فهى علامة الكون وعلامة التاريخ.

قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا فى حاجة إلى رسالة..

وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة..

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ..

***